

السُّلُوكُ الحضاري والفكر الصّوفي

د. عبد القادر النفاتي

المعهد الأعلى لأصول الدين،

جامعة الزيتونة.

إنّ طرق موضوع السلوك الحضاري والفكر الصوفي، يثير في الواقع عدّة تساؤلات أساسيّة أهمّها : هل توجد في الفكر الصوفي ثقافة للسلوك الحضاري، وهل للصوفيّة الوعي الكافي أو الاهتمام اللازم بها وبمواضيع الاجتماع والمدنيّة والمواطنة ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي أبرز الكتابات الصوفيّة التي أسهمت في تأسيس هذا النمط الأخلاقي الاجتماعي ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هي الأسس التي انبنت عليها شرعيّة طرح الإشكال ؟ وهل من سبيل إلى بناء جسر توافقي بين عالمي التصوّف والاجتماع، خصوصاً وأنّ الفكر الصوفي عرف باهتمامه بإصلاح الفرد وتركيزه الذات بينما السلوك الحضاري تتمظهر تجلّياته في عالم الجمع والاجتماع والاحتكاك بالآخر ؟ بمعنى آخر هل في الأفق الصوفيّ من الآداب والتعاليم والسلوكات ما يصلح لأن يكون معيناً أو مرجعيّة أو ثقافة يستند إليها السلوك الحضاري لتثبيت وجوده ودعم قيمه ؟ وهل تشكل دعوات الانزواء والعزلة والانفراد عوائق أو مزائق تقوّض الطرح برمته ؟

ومن جهة أخرى، هل تشكّل ثقافة السلوك الحضاري رافدا هاما من روافد الآداب والأخلاق الصوفية يمكن توظيفها في إطار الانفتاح على الآخر وتأكيد فكرة صلوحية الفكر والآداب الصوفية لإصلاح الذات والمجموعة معا ولرسم معالم النجاة وسبل الاستقامة والهدى ؟

إضافة إلى ذلك وإذا افترضنا حصول الاستفادة والدعم المتبادل بين العالمين (الأفق الصوفي وثقافة السلوك الحضاري) فما هي الآلية الناجعة لتأكيد وترسيخ قيم السلوك الحضاري والصوفي وأدبياتهما معا في إطار الحديث عن المواطنة والمدنية والتمدّن لتحقيق التجانس والتعايش ونبذ التوتر والصراع والتعصّب والتّمييز وكلّ أشكال التناحر والتصادم ؟ إنّه من هذا الباب أيضا ينبجس الإشكال التالي : هل يمكن أن تكون ثقافة السلوك الحضاري وأخلاقيات الفكر الصوفي دعامة رئيسية للتأثير إيجابيا في المجتمع وفي طبيعته ومستقبله ؟ فضلا عن تركيز التناسق والانسجام بين الحقوق والواجبات وبين المصالح الذاتية والجماعية وبين الخاص والعام ؟

بمعنى آخر هل يمكن أن تشكّل ثقافة العالمين (السلوك الحضاري والفكر الصوفي) وعيا كافيا أو فكرا شافيا لتجاوز الانتهاكات الأخلاقية والسلوكات المؤذية للآخرين، والأخطاء المقوّضة لروح الاجتماع والمؤانسة سواء أكانت تلك الأخطاء إجرامية يعاقب عليها القانون أو غير إجرامية (الاستهتار - النفاق - الرياء)، ولكنها تنتهك فعلا مبادئ معروفة وقواعد أخلاقية مجمع عليها، وتؤذي الآخرين في ذات الوقت.

في اجتماعية الإنسان :

إنّ الحديث عن السلوك الحضاري والفكر الصوفي يستلزم منا العودة حقيقة إلى الحديث عن اجتماعية الإنسان وإلى بيان مدى التزامه بالعيش مع الآخرين والاحتماء بظلّ مدنيّتهم ومؤانستهم، وذلك بوصفها الإطار العامّ الذي تتجلّى فيه ثقافة السلوك الحضاري وأدبيات الفكر الصوفي، مع العلم أنّ الحديث

عن هذه الاجتماعية لا يعتبر أمرا جديدا أو بدعة مستحدثة، فقد أشبعها القدامى بحثا وأكد حقيقتها المفكرون والفلاسفة مرارا وقد أوضحوا أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، تدعوه فطرته إلى الحياة مع الآخرين تلبية لحاجاته ورغباته ودعما لتطوره ونموه.

على هذا الأساس يمكن إذن القول إن الإنسان "مدني بالطبع" (1) كما ذكر ذلك ابن خلدون وما الحياة الاجتماعية إلا ضرورة من ضروريات نظامه الوجودي، وما محاولة التوصل منها إلا محاولة للهروب من الحياة الإنسانية ذاتها. وعليه، فلا مناص من التعلق بثوابتها والالتزام بضرورياتها تحقيقا لفوائدها ودفعاً لغوائل الخروج منها.

فضلا عن ذلك فإن الإنسان كائن حي يحب وبكره ويريد ويشعر ويفعل وينفعل... وهو في كل ذلك يحتاج إلى الآخرين، كي يؤثر ويتأثر ويستعين ويعين وكي تتجسد ميولاته ويتحقق فعله وانفعالاته أي أن هناك تأثير متبادل بين الإنسان والبيئة أو المحيط الذي يحويه (الأسرة - المدرسة - المجتمع...)، ولهذا فإن افتراض الوحدة أو العزلة بالنسبة إليه، هو افتراض للظلام ولوجه الحياة القاتم الذي يجعل الروح في احتباس واحتصار واحتضار خاصة وأن الحياة الاجتماعية كما ذكرنا تمثل ضرورة من ضروريات كينونته الوجودية، وشعوره بحب الآخرين له هو الذي يمدّه بالطمأنينة وبالأمل والطموح وحبّ العطاء، وإلا كانت الدنيا ظلما مقينا تتسم بالخوف والتوتر وسوء المآل.

وتؤكد أهمية اجتماعية الإنسان أيضا لا في احتياج الإنسان للمدينة والاجتماع فحسب، بل وفي احتياج المجتمع ذاته إلى الإنسان الفرد بوصفه الركن الأساس لتكوّنه، وتماسكه والقيمة الثابتة التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولذلك يحرص المجتمع عادة على الحفاظ على هذا الأساس وعلى تعليمه ضوابط التعامل مع الآخرين كي يعدل من أمانيه وأفعاله ويحسن المعاشرة

(1) ابن خلدون، "المقدمة" دار الجليل، بيروت، ص : 46.

ويحافظ على المودة والرحمة والتضامن وقيم المحبة والإخاء والتعايش، ويتجنب أسباب الظلم والتعدي والتآفر، يقول ابن خلدون متحدّثاً عن هذا المعنى : "إن الطبيعة البشرية تستلزم الحياة الاجتماعية التي كثيراً ما تحمل على التعدي وتؤدي إلى التنازع بين الأفراد، وهذه الحياة لا يمكن أن تستمرّ إلاّ بوجود وازع يمنع التعدي ويرفع التنازع وهذا هو الذي يولد الحكم والدولة" (2).

وبناء على هذا، تتجلى الحياة الاجتماعية أمراً جدّياً وضرورة أساسية لا غنى عنها، في ظلّها يمكن أن تتحقّق الرغبات والأمنيات والحياة التكافلية والفكرية والعاطفية والروحية وكلّ أسباب الألفة والمعاشرة.

ولكي تكون هذه الحياة الاجتماعية ناجحة وناجعة، كان لا بدّ من وجود جملة من الضوابط والبيهيّات والأخلاقيّات التي عبّر عنها بعضهم بالسلوك الحضاري والذي بإمكانه أن ينظّم العلاقات بين أفراد المجموعة، ويدرأ كلّ عوامل الانشقاق والتصادم.

فما مفهوم السلوك الحضاري إذن ؟ وما هي أبرز دلالاته ؟

السلوك الحضاري والمجتمع المتمدّن :

إنّ تبين مفهوم السلوك الحضاري يطرح بعض الإشكالات الموازية في الحقيقة مثل : هل يعني إطلاق المصطلح أن هناك سلوكاً غير حضاري لا يليق بنا أن نتحلّى به أو ننتهجه ؟ وهل وصف السلوك بكونه حضاريّاً يسبغ عليه ذلك ضمناً لونا من الإيجابية والقبول بشكل يجعله مستساغاً ومحبّذاً ؟ أم أنّ للمصطلح دلالة أخرى تمخّضه لأن يكون نمطاً من السلوكات والمعاملات ذات الضوابط المعلومة والمعينة التي أفرزها العصر واقتضتها ضرورات الحداثة ؟

(2) ابن خلدون، "المقدمة"، ص ص 43-44.

السلوك الإنساني في مفهومه الأولي هو عبارة عن جملة الحركات والأنشطة والتفاعلات والانفعالات التي يقوم بها الإنسان تحقيقاً لأغراض معينة، مقصودة أحياناً وعفوية أحياناً أخرى، مع العلم أنه يمكن ملاحظة تجلياته بواسطة الحواس الخمس، ويمكن أيضاً تصنيفه والتّمييز بين السلبيّ منه والإيجابيّ طبقاً لمعيار الانسجام مع ضوابط المجتمع ومقاييسه ونظمه وأخلاقيّاته، وبعدّ السلوك أيضاً : "أسلوباً أو طريقة تحكم تصرفات البشر والكائنات الحيّة الأخرى، يستخدم العديد من النّاس كلمة سلوك بقصد التصرف ويعني ذلك كميّة تناسب تصرفات الشّخص مع أفكار المجتمع فيما يتعلّق بالخطأ والصواب، ولكن في علم النّفس والعلوم السلوكيّة الأخرى يعتبر السلوك كأيّ نشاط لشخص أو كائن آخر..." (3).

والجدير بالذّكر أيضاً أنّ السلوك البشري يكون إرادياً أحياناً وغير إراديّ أحياناً أخرى "فالحديث في اجتماع مثلاً يبدو إرادياً واحمرار الوجه خجلاً أو الارتباك عند الحديث يبدو غير إراديّ ولكن نوعي السلوك المذكورين قد يتغيّران بالتّجربة، فقد يحدّد قرار مخاطبته بواسطة التّجربة السّابقة للفرد المخاطبة في الاجتماعات العامّة أو الجماهيريّة، بالإضافة إلى أنّ الأفراد قد لا تحمّر وجوههم ارتباكاً عندما يكتسبون المزيد من النّقة في النّفس..." (4).

هذا ويؤكد علماء النّفس المهتمّين "بالسلوكيّة" أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين السلوك الإنسانيّ والمرحلة العمريّة والفكريّة والتّمتويّة التي يعيشها الإنسان. ذلك أنّ "درجة تفهّم السلوك ومستوى أدائه يرتبط بقدرة الفرد على تفهّم السلوك وتحليله ومهارته في تنمية السلوك وتعديله وتوظيفه بطريقة فعّالة" (5)،

(3) الموسوعة العربيّة العالميّة، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعوديّة، الطبعة الثّانية 1419هـ/1999م، الجزء 13، ص 77.

(4) المرجع نفسه، ص 78.

(5) سليمان (حسن حسني)، "السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعيّة بين النظرية والتطبيق"، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م، ص 48.

ويعتبرون أيضا أن هناك جملة من العوامل التي تشكل معالم الشخصية وتوجه السلوك وتؤثر فيه لعل أهمها يتمثل في : عامل الوراثة وعامل البيئة أو المجتمع وعامل الاكتساب أو التعلم، وإذا ما تمّ التحكّم الرّصين فيها وتمّ توجيه الشخصية والذات والسلوكات توجيهها واعيا وثابتا، فإننا نستطيع أن نتحدث حينها عن سلوك حضاري ومدني في ظلّ مجتمع متكامل لا ينطوي على معنى التآزر والموافقة والموانسة فحسب بل وعلى معنى التّغاير والتنوّع والإثراء كذلك.

بناء على هذه المعطيات، يبدو السلوك الحضاري فعلا أو نشاطا للفرد متأثرا بجملة من العوامل المتنوّعة يهدف إلى تحقيق جملة من الأغراض المعيّنة ويحاول أن يراعي أو يتفهّم أو أن ينسجم مع الأنساق الاجتماعية (social systems) الموجودة في المجتمع، ولعلّه من هذا الباب كانت أغلب التعاريف التي تروم تحديد السلوك الحضاري مراعية هذه الجوانب الاجتماعية والالتزامات الخارجيّة تحقيقا للطابع الحضاري والتكامل الإنساني يقول تشارلز ر.كيسلر : "أن تكون متحضّرا يعني في الاستعمال العادي للكلمة أن تكون مؤدّبا، محترما رزينا، فهي صفة تدلّ ضمنا وبشكل خاص على كبح الغضب تجاه الآخرين، سواء كانوا رفقاء سفر أو أقارب أو مواطنين، وهي ليست في هذا المعنى نفس صفة الدّفء بل هي تدلّ ضمنا حقّا على برود معيّن، فالسلوك الحضاري يساعد على تهدئة المشاعر المتأجّجة جدّا لمواطنين أو لصنف معيّن من المواطنين"⁽⁶⁾، ويقول أيضا في السّياق ذاته : "كما تتطلّب المواطنة سلوكا حضاريّا، فإنّ السلوك الحضاريّ يشير فيما هو أبعد من ذاته إلى بعض المقاييس الأخلاقيّة الدائمة والموضوعيّة وإلى طبيعة دولة مدنيّة ثمّ إلى أعلى

(6) ر.كيسلر (تشارلز)، "السلوك الحضاريّ والمواطنة في التأسيس الأمريكي، ضمن كتاب إدوارد سي بانفليد، السلوك الحضاري والمواطنة في المجتمعات الديمقراطيّة الليبرالية"، ترجمة سمير عزّت نصّار، مراجعة أحمد يعقوب المجذوبة، دار النشر للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 1994، ص 48.

من ذلك أيضا إلى الاهتمامات الأخلاقية والنظرية لما يدعى حقًا بالمدنية، ولسنا في حاجة إلى القول إن هذه المصطلحات - المواطنة، السلوك الحضاري، المدنية - هي متجانسة ومشتقة من اللاتينية "civis" (مواطن) و "civitas" (مدنية) التي هي نفسها المعادل اللاتيني لعائلة الكلمات الإغريقية المشتقة من "polis" (مدنية)⁽⁷⁾.

على هذه الأساس يتجلى السلوك الحضاري أيضا احتراماً أصيلاً لحقوق الآخرين ولكرامتهم واعترافاً بحق كل كائن آخر في أن يفعل نفس الشيء الذي نقوم به، أي أن تسمي حقوق الآخرين في مستوى التقدير والقداسة اللذين يتمتع بهما الفرد ذاته وذلك تأسيساً لمبادئ التسامح والاحترام والحوار والتعايش وتأصيلاً لأبرز ملامح المجتمع المتمدّن.

السلوك الحضاري أيضا هو نمط من التعامل أو أسلوب عمل يصبو إلى تحقيق الموازنة والاستقرار والسلام يحتاج تثبيته إلى منهج تعليمي أخلاقي واضح يرسخ أديباته وقيمه وأهدافه، يقول تشارلز. ر. كيسلر "والسلوك الحضاري في المقام الأول هو من أمور التعليم الأخلاقي الذي يتضمن تشكيل شخصية الشباب، وتشمل أدوات هذا الفن التعليمات والأمثلة والموعظة والخجل الممارس بحرية كلما اقتضت أو استدعت الحالة ذلك"⁽⁸⁾ ويضيف أيضا في السياق ذاته: "والسلوك الحضاري يسمح بنوع من التهذيب وهو في أحسن الأحوال نوع من هذا التهذيب كما يسمح هذا السلوك بإشعال وتغذية تلك "الشرارة من النار السماوية" في الإنسان لتحقيق لهب ثابت من الجدّة الأخلاقية"⁽⁹⁾.

(7) ر. كيسلر (تشارلز)، "السلوك الحضاري والمواطنة في التأسيس الأمريكي، ضمن كتاب إدوارد سي بانفلد، السلوك الحضاري والمواطنة في المجتمعات الديمقراطية الليبرالية"، ترجمة سمير عزت نصار، مراجعة أحمد يعقوب المجذوبة، دار النشر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1994، ص ص 80-81.

(8) المرجع نفسه، ص 83.

(9) المرجع نفسه، ص 84.

بناء على هذا، يبدو السلوك الحضاري إذن ضرورة أساسية للحياة الاجتماعية المتمدنة، بما أنه من الطبيعي أن يتأسس أي مجتمع متماسك على حد أدنى من السلوك الحضاري وعلى قدر معين من الوعي الذي يوازن بين الحقوق والواجبات وبين المصالح الذاتية والجماعية تحقيقاً للاستقرار والتواصل والتوافق والتعاون والانسجام وحفاظاً على النظم والمؤسسات وإلاّ تعرّض ذلك المجتمع إلى آفة الفوضى والنزاع المهلكين.

ومن جهة أخرى، فإنه من الصعب كذلك أن نفترض وجود مجتمع على أرض الواقع خال من السلوكات اللاحضارية، ومتمدناً تماماً، ولا يفكر أفرادُه بأيّ شيء سوى الصالح العام، إذ أنّ مجتمعاً بتلك الصورة هو مجتمع خياليّ، ومملّ أيضاً يفقر التوازن المطلوب والاختلاف الضروريّ والتنوّع اللازم، إذ لا بدّ من وجود السلبي إلى جانب الإيجابي والشرّ إلى جانب الخير، وبضدّها تعرف الأشياء وتتأسس المفاهيم، فالخلاف بين النّاس نتيجة الاحتكاك والتعامل بينهم هو حقيقة ثابتة، والخروج عن صراط القانون أحياناً من طرف بعض المتنتهين هو حقيقة واقعة أيضاً، ولذلك كان لزاماً أن يشغل السلوك الحضاريّ مكانه الضروريّ في الحياة الاجتماعية المتمدنة بوصفه الشفاء الأمثل لمداواة تلك النّتوءات والرعونات التي تقوّض صرح التمدّن وبناء الحياة الاجتماعية الآمنة وتجعل من الحديث عن عوامل التّكامل الاجتماعي (الاشتراك - تقسيم العمل - التواصل - وحدة الهدف)⁽¹⁰⁾ حديثاً لا معنى له، ومن ثمّة نصبو حقاً إلى مقارنة المجتمع المتمدّن وتنزيل قيمه وأدبياته على أرض الواقع، بل وتؤكد أهمية السلوك الحضاري بوصفه أساساً ثابتاً ومكوّناً رئيسياً من مكوّنات المجتمع المتمدّن.

(10) سويّف (مصطفى) : "الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي"، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، سنة 1970، ص 296 وما بعدها.

والجدير بالملاحظة أيضا أنه كلما قلّ السلوك الحضاري كلما اقترب المجتمع من الهاوية والاضطراب والتوتر، واحتجنا إلى اعتماد القوة للقيام بما هو أساسي ولازم، أي بما كان ممكنا عن طريق الالتزام غير القسري، وانطلاقا من هذا فإنه من الضروري حقيقة أن تسعى المجتمعات المتمدنة إلى تثبيت قيم السلوك الحضاري على مستوى الفكر والواقع وإلى الجمع بينها وبين "المواطنة" بأساليب ناجعة وناجحة وبطرق متبادلة الدعم والفائدة، ومن هنا أيضا تتجلى أهمية الضوابط والالتزامات الأخلاقية في تثبيت السلوكات الحضارية ودعمها وتطعيمها بالمناهج اللازمة، ولا ريب أن هذا الأمر هو الذي يفتح الباب أمام الفكر الصوفي لاستنطاقه عن إمكانية تأدية هذا الدور ودعم السلوك الحضاري والإنساني على المستويين الباطني والخارجي من أجل الحفاظ على تناسق المجتمع وانسجام مكوناته.

الفكر الصوفي وتثبيت القيم :

إنّ مساعلة الفكر الصوفي عن إمكانية انطوائه على جملة من المفاهيم والتصورات التي تتسجم مع ثقافة السلوك الحضاري، والتي بإمكانها أن تلعب دورا إيجابيا في دعم الاجتماعية وقيم التواصل والتعايش هو الهدف والغاية حقيقة، كما أن التساؤل عن كيفية تحقق أدبيات الفكر الصوفي وإملاءاته الأخلاقية على مستوى الواقع المعيش يندرج بدوره ضمن المرام المنشود ولكن الجدير بالذكر أنّ الإمام بكلّ خاصيّات الفكر الصوفي ومضامينه في هذا الإطار هو أمر صعب التحقيق والتّنفيز بناء على شمولية الفكر ذاته واتّساع مجالاته، ولذلك فإنّ الاهتمام سيقنصر على ما يخدم المسألة الأمّ وعلى بيان ما يمكن أن يقدّمه الفكر الصوفي دعما للسلوك الحضاري وتثبيتا لثقافته.

إنّ أبرز الأشياء استحقاقا للذكر والبيان بداية هو اهتمام الفكر الصوفي بالشأن السلوكي للإنسان بوصفه الشأن المحور والأساس الذي تحوم حوله كل الاجتهادات والإسهامات، فضلا عن ذلك فإنّ نجاح فلسفة الفكر الصوفي في

إصلاح المملكة الإنسانية هو رهين بمدى صلاح السلوك واستقامته وبمدى التزامه بالصراط القويم.

ضمن هذا الأفق فإنّ أغلب التعريفات التي تروم تحديد ماهيّة التصوّف هي منسجمة مع هذا المعطى مؤكّدة له، حريصة على ربط الأخلاق بالتصوّف ربطاً متيناً يصعب فصله أو تحديد فروقات واختلافات بينهما، يتحدّث السراج الطوسي في هذا السياق قائلاً : "قال الشيخ رحمه الله، فأما التصوّف ونعته وماهيته فقد سئل محمد بن علي القصاب وهو أستاذ الجنيد رحمه الله عن التصوّف ما هو، قال أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام" (11).

وبناء على هذا، تتجلى الأخلاق أساساً لكلّ بناء في الفكر الصوّفي، والاهتمام بتهذيبها وتقويمها يمثل المنطلق والغاية في الوقت ذاته، أي أنّ إصلاح السلوك الإنساني وجعله منسجماً مع الذات ومع الإلاه والآخرين هو مرام الفكر الصوّفي وهدفه الأرقى، ولعلّ هذا يتّضح كذلك من خلال إجابة الجنيد عن التصوّف حيث يقول "أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة" (12) ومن خلال إجابة أبي محمد الجريدي أيضاً عن التصوّف حيث يقول : "الدخول في كلّ خلق سنّي والخروج من كلّ خلق دنيء" (13).

أي أنّ التصوّف بهذا المنظار هو توجّه أساسي إلى الجانب العملي السلوكي وحرص أكيد على أن يكون التخلّق مع الآخرين سنّيّاً وكريماً على اعتبار أن المقصد العامّ هو الإصلاح وتصفيّة السّريرة تصفية واعية وسليمة تؤهّل السالك إلى السّير في منهاج ربّ العالمين وإلى الترقّي في منازل

(11) الطوسي (أبو نصر السراج)، "اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي"، ضبط وتصحيح كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2001م، ص 26.

(12) المصدر نفسه، ص 26.

(13) المصدر نفسه، ص 26.

السائرين ترقياً خالياً من كلّ الشوائب والرّعونات، مع العلم أنّ هذا المنحى الذي يروم ربط التصوّف بالأخلاق قد غلب في الواقع على اهتمامات الصوفيّة خاصّة في بدايات التصوّف حينما كان الأمر مرتبطاً بالزّهد والورع والخوف والتّقوى، وهذا ما نلاحظه مثلاً في أحد تعريفات الجنيد للتصوّف حيث يقول إنّهُ : "تصفية القلب عن موافقة البريّة ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشريّة ومجانبة الدّواعي النّفسانيّة ومنازلة الصفات الروحانيّة والتعلّق بالعلوم الحقيقيّة واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنّصح لجميع الأمة والوفاء لله عل الحقيقة، وأتباع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في الشريعة" (14).

الرّبط ذاته بين التصوّف والأخلاق نسجته في تحديد الجرجاني للتصوّف حيث يقول : "التصوّف : الوقوف مع الآداب الشرعيّة ظاهراً فيرى حكمها من الظّاهر في الباطن وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظّاهر فيحصل للمتأدّب بالحكمين كمال" (15).

إنّ هذا التوجّه الذي يروم الرّبط بين الأخلاق والتصوّف والتركيز على الجانب العملي السلوكي، في تحديد التصوّف لم يكن مقتصرًا على الفترة الأولى من ظهور التصوّف فحسب، بل كان حاضراً أيضاً في عدّة تعريفات أخرى وفي فترات زمنيّة لاحقة وذلك رغم غلبة الاهتمام بالجانبين النظريّ والمعرفيّ في بعض التعريفات واعتمادها على معجميّة الأدب والبلاغة والفلسفة قصد الاستفادة وتحصيل التنوّع والثراء، يورد التّهانوي جملة من التّحديدات في هذا الصّدّد قائلاً : "... وقيل بذل المجهود والأنس بالمعبود وقيل حفظ حواسك من مراعاة أنفاسك، وقيل الإعراض عن الاعتراض وقيل هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله التفرّغ عن الدّنيا، وقيل الصّبر تحت الأمر والنّهي، وقيل خدمة

(14) الكلاباذي، "التعرّف لمذهب أهل التصوّف"، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، 1380هـ/1960م، ص 25.

(15) الجرجاني، "التعريفات"، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، 1990، ص 61.

التشرّف وترك التكلف واستعمال التطرّف، وقيل الأخذ بالحقائق والكلام بالناقائق والإيتاس عمّا في أيدي الخلائق...⁽¹⁶⁾.

ويتّضح الرّبط جليّاً أيضاً بين الأخلاق والتصوّف في تحديد ابن عربي لمقام التصوّف رغم اشتهاؤه بالتركيز على الجوانب النظرية والمعرفيّة والوجوديّة في فهمه إذ يقول : "قال أهل طريق الله : التصوّف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوّف"، وسنلت عائشة أمّ المؤمنين عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : كان خلقه القرآن وأن الله أنثى عليه بما أعطاه من ذلك فقال : "وإنّك لعلّى خلق عظيم"⁽¹⁷⁾، ومن شرط المنعوت بالتصوّف أن يكون حكيماً ذا حكمة وإن لم يكن فلا حظ له في هذا اللّقب فإنّه حكمة كلّ، فإنّه أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامّة وعقل راجح وحضور وتمكّن قويّ من نفسه حتّى لا تحكم عليه الأغراض النفسيّة وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام فينظر إلى ما وصف الحقّ به نفسه وفي أيّ حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفيّ بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنّف، فأمر التصوّف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق...⁽¹⁸⁾.

إنّ ما يمكن ملاحظته في هذا المستوى أنّ أغلب تعريفات التصوّف وكذلك المؤلفات الصوفيّة ركّزت على الجانبين القيمي والأخلاقي وعلى النزعة الإنسانيّة والاجتماعيّة وعلى التعامل مع الآخر على أساس المحبة والمودة والإيثار والعطاء واستشعار الأخوة الإنسانيّة، وكذلك التعريفات التي اهتمت بالجانب النظري والمعرفي لم تهمل بدورها العنصر الأخلاقي بوصفه الشرط

16) التهانوي (محمد علي)، "كشاف اصطلاحات الفنون"، سلسلة موسوعات المصطلحات العربيّة والإسلاميّة، تقديم رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1986، ج 1، ص 456.

17) القلم، 4.

18) ابن عربي (محي الدين)، "الفتوحات المكيّة"، دار الفكر، بيروت لبنان، طبعة سنة 1414هـ/1994م، ج 3، ص 481.

الأساس للتّرقّي في مدارج السّالّكين وحصول المنّ والوجود الإلهيين، يقول الغزالي في هذا المعنى "الطّريق تقديم المجاهدة بمحو الصّفات المذمومة وقطع العلائق كلّها والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى" (19).

مع العلم أنّ هذه القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة التي يحرص الصّوفيّة على تثبيتها وعلى تجسيمها في تعاملهم مع الآخرين هي مستمدّة في الواقع من فلسفتهم السلوكيّة العمليّة، ومن الصّفاء الرّوحيّ الذي بلغوه في إطار حرصهم على تحقيق الرّضى الإلهي والعفو الرّبّاني وعلى تمتين الصّلة به عزّ وجلّ كي يكونوا معه بلا مكان ومن ثمة لا يمنعهم من علم كل مكان.

ضمن هذا الأفق إذن يمكن القول إنّ التّصوّف باهتمامه بالأخلاق وبالسلوك يمثّل رافداً أساسيّاً أو مرجعاً هاماً من المراجع يمكن أن تستفيد منه ثقافة السلوك الحضاري على مستوى الفهم والمنهج، كما يمثّل أيضاً معينا زائدا بالمعاني والقيم يمكن أن يدعم أواصر الأخوة والاجتماعيّة والتّعايش، خاصّة وأنّ مقاصد التّصوّف التّربويّة والأخلاقيّة كما سلفت الإشارة إلى ذلك تركّز على المستوى الباطني والنّفسي أي على تحقيق الصّفاء الرّوحي والتّركيّة النّفسيّة ويقتطع الضّمير والاجتهاد نحو الكمال بواسطة الاستقامة والالتزام وعلى المستوى الاجتماعي أيضاً حيث تحرص على تنظيم العلاقات الإنسانيّة وعلى حفظ الحقوق ورعايتها فضلا عن نشر المحبّة والمودّة وقيم الإيثار والعطاء والتعاون وضمان الاستقرار والأمن والسّلام وذلك تجسيما لعدّة اعتبارات شرعيّة وحكم قرآنيّة من مثل قوله عزّ وجلّ "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" (20)، وقوله "وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" (21) وقوله تعالى أيضا "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" (22).

(19) الغزالي (أبو حامد)، "ميزان العمل"، تحقيق وتقديم سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى 1946م، ص 222.

(20) البقرة 143.

(21) البقرة 237.

(22) البقرة 83.

مع العلم أنّ هذه المقاصد والأهداف التي يسعى التصوّف إلى تحقيقها يضمن تنفيذها في الواقع تعلّق الصّوفيّة بالله عزّ وجلّ بغية السّالكين ومرام العاشقين، وكذلك استشعارهم لوجوده وحضوره ومراقبته وشوقهم إلى نيل رضاه وعفوه ومنه، فضلا عن ذلك فإنّ تلك المقاصد والأخلاق والسلوكيات التي ينادون بها تتسجم مع الفطرة والطبيعة ومع إملاءات الواجب العقليّ والشرعيّ، فلا تصادم أو مشاحة في التنفيذ والتّطبيق بما أنّ الآداب والأخلاق المهدّبة هي نابعة من عمق الباطن الإنسانيّ، وبإمكانها أن تردع كلّ مصادمات الغرائز والميول، أمّا العقل، وإن كان نورا في محيطه ودائرته، فإنّه لا يستطيع أن يكون بمفرده منبعاً جيّداً للالتزام والاستقامة السلوكيّة والصّلاح والسّعادة . لذلك، فإنّه من الضّروري الاعتماد على رصيد معنويّ وعلى فكر غنيّ بالقيم والثوابت بحقّق الحسنيين : الإصلاح الباطني والإصلاح الخارجي، ويجعل الإنسان كائنًا اجتماعيًا متوازنًا كائنًا يسهم في بناء "مجتمع ربّاني، ولا تعني الرّبّانية تحليقا في آفاق من الرّوحية التي تحرّر روح الإنسان من جسده أو تأخذ هذا الإنسان من مجتمعه ومن عالمه الماديّ الذي يعيش فيه لأنّ ذلك على نقبض الفطرة التي فطر النّاس عليها" (23) وإنّما القصد من الرّبّانية هنا تحقيق الإنسانية في أرقى صورها.

إنّ إيجابيّة الفكر الصّوفي وفاعليّة مقولاته في تأصيل القيم الأخلاقية وفي دعم ثقافة السلوك الحضاري تتجلّى أيضا من خلال تشنيعه بالأخلاق السيّئة والمذمومة، واعتبار ذلك انفلاتا من قيود المنطق والإنسانية وانسياقا وراء ميولات النفس الشّهوانيّة والغضبيّة، ومن خلال إشادته ببعض القيم والأخلاق المحمودّة ودعوته إلى التحلّي بها وإلى الالتزام بسننها، فمن القيم المنوّه بها مثلا والتي اعتبر الارتياض بها منجيا ومحققا للسّعادة في الدارين.

(23) عبّود (عبد الغني)، "الملاحم العامة للمجتمع الإسلامي"، الكتاب التاسع من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر)، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، يناير 1980، ص 42.

- التَّقْوَى :

وهي جماع كل خير وأساس كل إصلاح باطني أو خارجي بواسطتها تقوم السلوكات والعلاقات سواء أكان ذلك مع الإله عزّ وجلّ أو مع الذات أو مع الآخرين، قال ذو النّون المصري في هذا الإطار : "النقيّ من لا يدنس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعلامات ويكون واقفاً مع الله موقف الاتفاق"⁽²⁴⁾ فالتقوى إذن لا يقف تأثيرها على تنقية الباطن من الشوائب والعلائق ولا على تطهير القلب من الكدورات والرعونات، وإنما يتجاوز ذلك إلى مستوى إصلاح العلاقة مع الآخرين والحرص على عدم الإساءة لهم أو الخطأ في حقهم بما أنّ التقوى تخلف المراقبة الإلهية الدائمة والخشية من حصول القسوة والبعد المهلكين في طريق السير إلى الله.

- المراقبة :

وهو مقام شريف من المقامات السنية في الطريق الصوفي، ومحاولة لتمثّل القصد القرآني من قوله عزّ وجلّ : "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"⁽²⁵⁾. وكذلك للنصح النبوي الحكيم في تعريفه للإحسان : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"⁽²⁶⁾، مع العلم أن مقام المراقبة هو مورث للحياء من الله عزّ وجلّ، ومورث للاستقامة السلوكية وللأدب مع الإله والعباد، وهذا في الواقع ما يسهم بشكل كبير في تحسين العلاقات وإصلاحها وفي بناء المجتمع الحضاري المنشود.

(24) القشيري (عبد الكريم)، "الرسالة القشيرية في علم التصوف"، تحقيق وإعداد معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1410هـ/1990م، ص 106.

(25) التوبة، 78.

(26) "صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبرّي ممّن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، رقم 1".

- المحبة :

وهي شرط السلوك إلى ملك الملوك وأساسه قال فيها بعضهم "المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب" (27) وقال سهل بن عبد الله "الحبة معانقة الطاعة ومباينة المخالفة" (28) وقد سئل أبو سعيد الخراساني فقال : "طوبى لمن شرب كأساً من محبته وذاق نعيماً من مناجاة الليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملئ قلبه حباً وطار بالله طرباً وهام إليه اشتياقاً، فيا له من وامق (29) أسف بريته، كلف دنف (30) ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه" (31).

المحبة إذن بهذا التصور تؤسس حقيقة مجتمعاً مثاليّاً من المحبين همهم الأساس والوحيد تحقيق رضى المحبوب والتعالي عن كل ما يشغلهم عن ذلك، وعن كل ما يفسد ودّهم ويورق عشقهم، ولذلك، نراهم موطنين للأكناف يبتغون فضلاً من الله ورضواناً يصدق فيهم قول الله عزّ وجلّ : "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا..." (32).

إنه بهذه الصفات حقيقة يمكن القول إنّ "المحبة" بمفهومها الصوفي والإنساني هي أحد الأركان الأساسية للأخلاق الفاضلة وللسلوك الحضاري القويم ولا يمكن لأيّ مجتمع ينشد لذاته التماسك والانسجام أن يستغني عنها.

(27) القشيري (عبد الكريم)، "الرسالة القشيرية في علم التصوف"، ص 321.

(28) المصدر نفسه، ص 321.

(29) وامق : أي محب، وامقة، وماقا، ومواقمة، أحبّ كلاهما الآخر، وتوامق الرجلان تحاباً.

(30) كلف : كلف به : أحبه حباً شديداً وأولع به / الدنف : من لازمه المرض ودنا من الموت، ج : أدناف : ج مؤنث، دنفة، ج : دنفات.

(31) الطوسي (أبو نصر السراج)، "اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي"، ص 54-55.

(32) الفرقان، 65.

- الصَّبْر :

وهو من القيم الأساسية في التربية الصوفية، قال ذو النون المصري في تعريفه : "الصبر التّباعّد عن المخالفات والسكون عند تجرّع غصص البليّة وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة" (33). وقال غيره أيضا بأنّه "ملازمة الواجب في الإعراض عن المنهي عنه والمواظبة على المأمور به، والصابر من يصبر في الله والله ولا يجزع ولا يتمكّن منه الجزع ويتوقّع منه الشكوى" (34).

إنّ قيمة الصَّبْر بهذا المنظور الصوفي تسهم بشكل كبير في الواقع في وجود مجتمع متماسك متضامن تغيب فيه كلّ أشكال التناحر والصدام بما أنّ الأفراد تشبّعوا بمعاني الجلد والتحمل والتجاوز، تشبّعوا يؤهلهم إلى تجسيم قيم الوفاق والوئام والعيش المشترك، بل وإلى تثبيت ما يسمّى : السلوك الحضاري.

- الزَّهْد :

يقول الغزالي في هذا الإطار : "اعلم أنّ الزَّهْد في الدّنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأنّ أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل ... أمّا الحال فنعني بها ما يسمّى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرّغبة عن الشّيء إلى ما هو خير منه، فكلّ من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل عنه لرغبته عنه وإنّما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمّى زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى رغبة وحبّا، فإنّ يستدعي حال الزَّهْد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب

(33) القشيري، "الرسالة القشيرية في علم التصوّف"، ص 184.

(34) الطوسي، "اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي"، ص 48.

عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمّى زاهدا... (35).

إنّ الاقتناع بل الإيمان بهذه الأخلاقيات والتصورات سيجعل من الصّوفيّ زاهدا فيما يتكالب عليه النّاس ويتناحرون، ومن ثمّة يتأسّس المجتمع الفاضل الذي يحبّ أفراداه لغيرهم ما يحبّون لأنفسهم، بل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويزهدون في المتاع الزّائل رغبة في الخلد والنّعيم المثاليين وفي السّعادة والبقاء الأبديين، مع العلم أنّ فضيلة الزّهد لا تعني الانقطاع التّام عن الدّنيا والانتزاع عن معاشرة النّاس، ورفض الطّيّبات، إنّما القصد من ذلك أن لا يتسرّب الأمر إلى الوعي والقلوب فيصبح مهيمنا على السّلوّك وموجّها للأعمال والتصرّفات، مع العلم أنّه بالإمكان أن يكون المرء زاهدا ومالكا للدّنيا ولكن بدون أن تملكه الدّنيا.

إنّ هذه الخصال هي ما يحتاجه المجتمع كي يدرك الغاية من وجوده ويرتقي في فهمه وتصرّفاته إلى مستوى التميّز والمثاليّة، ومن ثمّة يكون حقّا مجتمعا متقدّما وحضاريّا.

إضافة إلى القيم السالفة الذّكر، فإنّ للصوفيّة جملة من الآداب الأخرى أيضا ينفّسون بها ويدعون إلى الارتياض بها لما لها من فوائد وإيجابيات على المستويين الفردي والجماعي من ذلك مثلا (الحياء / التّواضع / مخالفة النّفس / التوكّل / الشّكر / الاستقامة / الإخلاص / الصّدق / الجود والسّخاء...) ولا ريب أنّ هذه المبادئ تشكّل بدورها أسسا ثابتة في تثبيت التماسك والتّواصل الاجتماعيّ فضلا عن دعم فضيلة الألفة والأخوة وحسن الخلق يقول الغزالي في هذا الإطار : "اعلم أنّ الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرّق ثمرة سوء

(35) الغزالي، "إحياء علوم الدين"، ضبط ومراجعة القاضي الشيخ محمد الدّالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة سنة 1423هـ/2002م، ج 4، ص 230.

الخلق" (36) ويقول أيضا في موضع آخر : "وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول برًا وصولًا وقورًا صبورًا شكورًا راضيًا حلِيمًا رفيقًا عفيفًا شفيعًا، لا لعانا ولا سبابا ولا نمًا ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا، بشاشًا هشاشًا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويبغض في الله فهذا هو حسن الخلق" (37).

الصوفيّة لم ينوّهوا بالأخلاق المحمودة بوصفها أسسا ومعالم لطريق النّجاة والتّماسك الاجتماعي والحضاري فحسب، بل نبّهوا أيضا من مغبة الانسياق وراء شهوات النفس والأخلاق المذمومة بوصفها من المهلكات المقوّضة للصرح الاجتماعي والإنساني ومدمّرة لقانون التعايش والانسجام، من ذلك مثلا (ذمّ الحسد والغيبة وحبّ الدّنيا، والانسياق وراء شهوتي البطن والفرج وآفات اللّسان والغضب والحقد والبخل والخمول، والكبر والعجب والرّياء والغرور...).

إنّ دعوة الصّوفيّة إلى تجنّب هذه الأخلاق المشينة ليندرج في الواقع في إطار حرصهم على بناء مجتمع فاضل يسوده الحبّ والوئام والانسجام، وعلى تأسيس أخلاق أو سلوكات مميّزة وحضاريّة تعكس علوّ باعهم في هذا الشأن ورفعة تفكيرهم وسموّ فلسفتهم العمليّة وتحقّق أيضا سعادتهم الدّنيويّة والأخرويّة.

إنّ هذه الفلسفة الأخلاقيّة التي دعا إليها الصّوفيّة لم تكن في الحقيقة عالما مثاليّا بعيدا عن الواقع صعب التّنفيد والتّطبيق، بل كانت فلسفة عمليّة تصبو إلى تحقيق الطّهارة الرّوحية والتّركيبة النّفسية، وقد حرصوا على تمثّلها في تجاربهم الصّوفيّة وفي معاملاتهم خاصّة بين أصحاب الطّريقة الواحدة الذين يمثّلون

(36) الغزالي : "إحياء علوم الدين"، ج 2، ص 214.

(37) المصدر نفسه، ج 3، ص 92.

مجتمعا أنموذجا تتحقّق فيه الآداب الأخلاقية والسلوكات الحضارية، والقيم المدنية مثل التعاون والإخاء والمحبة والوئام والتعايش وذلك على اعتبار أن تلك الفلسفة الأخلاقية تمثّل شرطا أساسيا لحصول الترقّي والتدرّج في مراقي الساترين، وقد اعتبروا التحلي بها معيارا لتمييز الغثّ من السمين، ومعيارا أيضا لتبيين مدى صدق أصحاب الطرق والزوايا والأتباع في مناهجهم الصوفية وتصوّراتهم التربوية، وكلّ فكر يروم التحلّل من منهاجها في دعواته، هو فكر مردود بما أنّه بجانب للصواب والحقيقة، مقوّض لأواصر الاجتماع والألفة والأخوة والتواصل.

دعوات العزلة وإشكالية المواعمة :

لعلّ أبرز الإشكاليات المنبجسة في هذا السياق، والتي قد تقوّض طرح المواعمة ودعم الفكر الصوفي لأخلاقيات الاجتماع والسلوك الحضاري هو فهم دعوة الصوفية إلى العزلة والانزواء تحقيقا لعدّة فوائد تربوية وأخلاقية وتجنباً لعدّة غوائل وكدورات ممكنة الحصول جرّاء المعاشرة والمخالطة فهما خاطئا ممّا عمّق الإشكال وزاد في استعصائه. على هذا الأساس فإنّ العودة إلى التصوّر الحقيقي للعزلة عند الصوفية سيزيح بلا شكّ الحجب ويوضّح الحقيقة وزيف التصوّرات الخاطئة، يقول القشيري في هذا الإطار : "إن الخلوة صفة أهل الصفوة والعزل من أمارات الوصلة ولا بدّ للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه، ومن حقّ العبد إذا أثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شرّه ولا يقصد سلامته من شرّ الخلق، فإنّ الأوّل من القسمين نتيجة استصغار نفسه والثاني شهود مزيته على الخلق، ومن استصغر نفسه فهو متواضع ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر" (38).

(38) القشيري : "الرسالة القشيرية في علم التصوف"، ص ص 101-102.

ويضيف أيضا صاحب الرسالة في الموضوع ذاته قائلا : "ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم على ما يصحح به عقد توحيده لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع على ما يؤدي به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم، والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال الذميمة، فالتأثير لتبديل الصفات لا للتأني عن الأوطان، ولهذا قيل من العارف ؟ قالوا : "كائن بائن، يعني كائن مع الخلق بائن عنهم بالسر"⁽³⁹⁾. انطلاقا من هذه المعطيات المقدمة إذن يمكن القول إن الفهم الذي يقصر "العزلة" عند الصوفية على المعنى الظاهري البسيط وعلى الانزواء وتجنب الناس والمعايشة هو فهم خاطئ لم يترشد بعد، بل أن تحقق العزلة يمكن أن يكون في الدخول بين الزحام، ولكن شريطة أن يكون السر متعلقا بالحق جلّ جلاله، كما أن الغاية من العزلة هو التفرغ للعبادة والتفكير والتدبر والذكر والتخلص من المعاصي والفتن والخصومات الممكنة الوقوع من جرّاء المخالطة والمداراة، هذا فضلا عن صيانة الدين والنفس والتأكد من انقطاع طمع الناس فينا وطمعنا فيهم⁽⁴⁰⁾.

وعليه، فإن العزلة بهذا التصور تسمي أمرا محبذا ومطلوبا بل وقيمة خلقية مؤكدة للاجتماعية والتواصل وللألفة والتوادد بما أنها تغرس في الفرد أخلاقا زكية وآدابا سنية تقرب بينه وبين الآخر وتجعل من التعايش ممكنا ومن التزام الأخلاق والسلوكات الحضارية أمرا ميسرا سهل التنفيذ تبعا لتسبّع المرء بوعي المراقبة الإلهية الشاملة والدائمة وبفكرة الأنس بالله التي تغني عن كل استئناس. بناء على هذا، فإن القول : إن دعوات الصوفية إلى العزلة بوصفها منهجا تربويا هادفا يركي النفس ويهذبها تمثل إشكالا معوقا لتحقيق الموازنة والاجتماعية وروح الإخاء وإشكالا معوقا أيضا لتجسيم مستلزمات الفطرة والطبيعة والسلوك الحضاري، هو قول وقف على المفهوم الظاهري للمصطلح

(39) القشيري، "الرسالة القشيرية في علم التصوف"، ص 102.

(40) راجع "إحياء علوم الدين" للغزالي، ج 2، ص 309 وما بعدها.

ولم يدرك المغازي الأساسية التي يهدف إليها الصوفية من وراء ذلك، ولعل أهمها كما سلف الذكر تركية الذات وتعويدها على الأنس بالله والإيمان بأنها ذات ضعيفة إن تخلت عنها رعاية الله لحظة هلكت وبادت، وهذا ما يجعلها مؤهلة حقاً إلى الاجتماعية والانسجام مع الآخر، والتزام الآداب والسلوكات الحضارية.

بناء على ما سلف نخلص إلى الملاحظات التالية :

- يشكل الفكر الصوفي معينا زاخرا بالتصورات والفلسفات التربوية والأخلاقية يمكن الاستفادة منه في إطار توطيد الاجتماعية والتعايش وهو بهذا يمثل رافدا هاما من روافد ثقافة السلوك الحضاري بل ودافعا قويا ونابضا إضافيا (un ressort de plus) تتحقق بواسطته الفضيلة المدنية والاجتماعية وفلسفة التواصل وتدرأ كل التجاوزات والانتهاكات المؤذية للآخرين.

- إذا كانت أسس التعايش والاجتماع والتواصل مرتكزة في المنظومة الثقافية للسلوك الحضاري على تشريعات العقل وعلى تفريراته المنطقية فحسب، فإن الأسس في الفكر الصوفي تتبنى إضافة إلى ذلك على عنصر التجربة الروحية والمراقبة الإلهية وهو ما يزيد الأسس متانة والتأثير قوة وفاعلية.

- تحتاج مجتمعات اليوم إلى نمط من السلوكات والآداب والالتزامات لتأمين الحقوق المدنية، وهذا لا يمكن أن يحصل إذا لم يرب الشباب على مراعاة قواعد السلوك الحضاري التي يجدر بها أيضا كما سلف الذكر أن تستفيد من تصورات الفكر الصوفي ومن فلسفته العملية لكي تكون مطعمة وفاعلة وسريعة التأثير، ولكي يكون الضمير حاضرا وحيّا في الصدور مؤثرا على الجوارح والعقول بما أنه يستحضر المراقبة الإلهية ويميل إلى إقامة الحق والواجب.

- إنَّ التَّنَكُّرَ لثقافة السلوك الحضاري ولما يمكن أن يقدِّمه الفكر الصوفي من تصوّرات وأخلاقيات هو محاولة لتجريد الحياة الإنسانية من آدابها الأساسيّة ومحاولة أيضا لإحلال السلوك اللّاحضاري وفكر القوّة والاستبداد.

- إنَّ المطلوب اليوم هو تفعيل تطبيقات السلوك الحضاري على مستويي الفكر والواقع خاصّة وأنّ نوازع الصّراع والتسلّط وأنواع التعصّب والتّمييز بدأت تنتشر بصورة أكبر وذاك لا يتمّ إلّا بالتربيّة على فضائل الإيمان ومكارم الأخلاق.